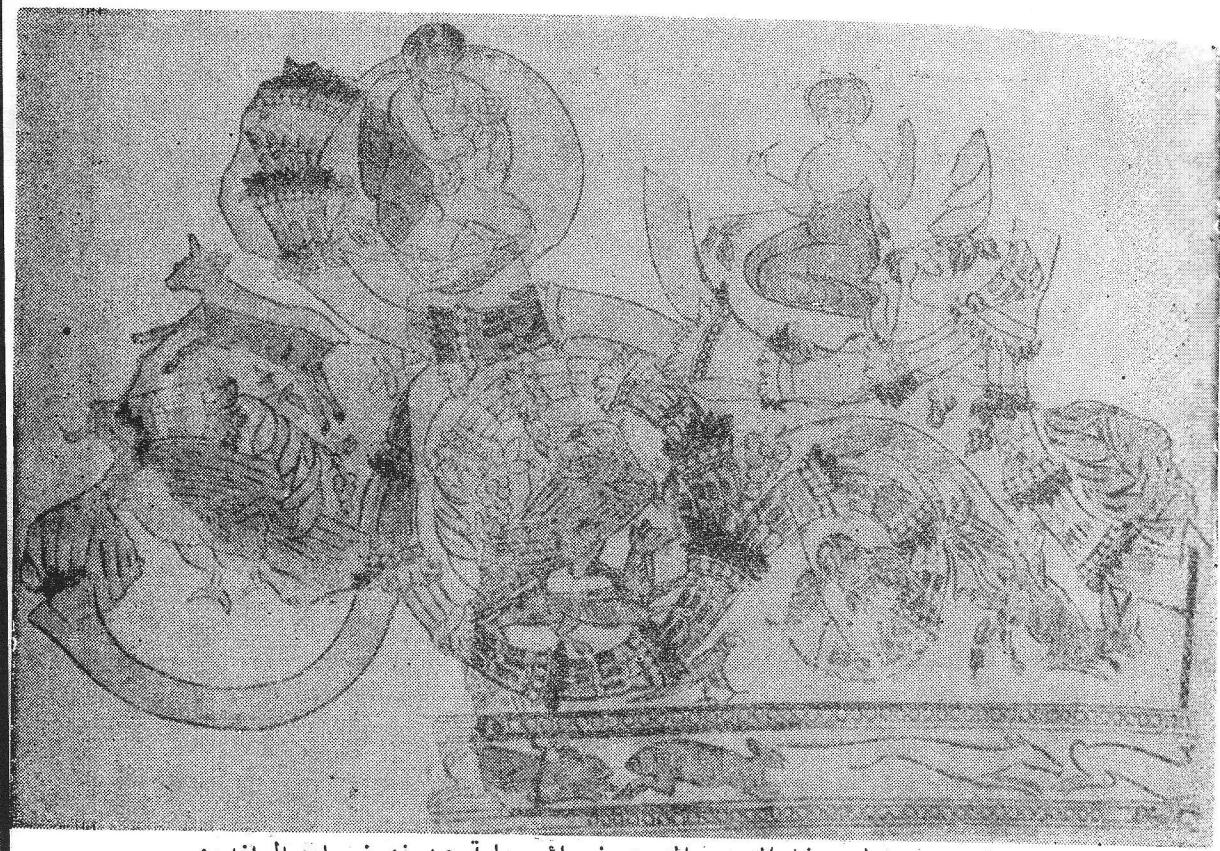


الفنون الإسلامية في العراق

لغان البرى

لم يكن للمسلمين فن متميز بهم في فجر تاريخهم حتى تم فتحهم للعراق وسوريا ومصر وإيران (٩٤٥-٧٤٩) ، وتبنيهم للفنون الرفيعة في هذه البلاد . والحضارة الإسلامية شأنها شأن أي حضارة حية ، أخذت بالتقالييد الموروثة لهذه المنطقة واضافت اليها أشكالاً جديدة مجردة وطورتها إلى اسلوب زخرفي إسلامي أصيل ، ولو اننا تتبعنا ما تقبلته الحضارة الإسلامية من الفنون لرأينا اصولها ترجع إلى مصدرين هامين هما الفن البيزنطي والفن الساساني اللذين خلقاً أسلوباً جديداً من الزخارف البحثة استمدانها من الفنين الآشوري والأخميني ، ويتميز هذا الأسلوب بالتكرار والتماثل ويعتمد على زخارف شبيهة بالازهار .

وتبرز الفنون الإسلامية في العمارة والنحت والتصوير والخزف والكتابية وصناعة البرونز والنسيج . وتنتفاوت مستوياتها بين الدول الإسلامية وفقاً للماضي الحضاري لكل منها ، ولكن رسوخ الإسلام جعل لهذه الفنون صفات خاصة تميزها عن غيرها من فنون الحضارات الأخرى في العالم .



وستتناول بهذا البحث الموجز خصائص عامة عن فنون وادي الرافدين مؤكدين على العصر العباسى ، وهو العصر الذى ازدهرت فيه الفنون وأصبح لها أسلوب مميز .. واننا في الوقت الذى نتعرض فيه لفنون هذه المنطقة نترك جانبها العمارة لأن في إيجازنا لوصفها نشوء معالها .

ساهم العراقيون في العصر العباسى مساهمة فعالة في النحت على الحجر والجص ، وذلك عند نشأة مدينة بغداد ثم عند تأسيس مقر الخلافة المؤقت في سامراء .. ورغم هجر هذه المدينة الرائعة بعد سبعة وأربعين عاماً من بنائها (٨٣٦-٨٨٣) فان قصورها ومنازلها الشاسعة لا تزال تروي لنا قصة عمارة ونحت رائعين .. فقد جهزت هذه المساجن بالحمامات والنافورات وزينت جدران غرفها الرئيسية بالصور الجدارية ، وابرز ما في زخارفها اتباعها لثلاثة اساليب طغت على كل ما عداها في المهد العباسى ، وأقدم هذه الاساليب الحفر المباشر ، وت تكون زخارفه من تفريغات العنبر والماواح التخيالية وأشكال الزهريات داخل تقسيمات هندسية سداسية النصوص ، ومع أن هذا الاسلوب يعتمد على الزخرفة

الاموية الا أن رجال الفن العباسيين ابتكرروا اشكالاً جديدة وعناصر زخرفية تراوحت بين عمق الحفر الذي تراه على متنبر خشبي هام في مسجد القبور ، وبين حشوة خشبية من (تكريت) محفوظة في متحف الميترو برتقان . أما الاسلوب الثاني فقد اعتمد على ملاعائط بحسوات جصية منفصلة تمتاز زخارفها بتجردها عن الطبيعة ، وت تكون من اشكال زهريات وتفريقات هندسية تحمل اوراقاً نباتية دائرية أو اشكالاً مختلفة من المراوح التخيلية ، وقد نجحت هذه الزخارف تحتا قليل البروز ، وكسيت اشكال مضلعة . أما الاسلوب الاخير الذي يعتمد على صب الزخارف في قوالب فانه يعتبر اكمالاً تطوراً مبدأ خاص من مبادئ الفن الاسلامي . هو مبدأ تقطية الفراغ تقطية كاملة ، تختفي فيه الارضية تماماً وتقتصر على حزو زخرفية نتيجة اتباع طريقة جديدة في ازخرفة حيث تتحت العناصر الزخرفية تحتا مائلة وتنقابل مع بعضها في زوايا منفرجة ، وقد استعمل هذا الاسلوب في النحت على الحص والحجر والخشب ، وت تكون اشكال هذا الاسلوب من مجموعة من التعبيرات الزخرفية المجردة قوامها تفريقات نباتية وخطوط قصيرة ونقط ، كما اشتغلت على كثير من الزخارف التقليدية الاسلامية ولكنها فقدت العناية بتفاصيلها . وقد شاع هذا الاسلوب في العصر العباسي وبالاخص في عهد هارون الرشيد .

وقد اتبعت هذه الاساليب الزخرفية في الحفر على الحص والحجر في سائر الاقاليم الاسلامية ، ودخلت مصر في عصر الدولة الطولونية ، حيث نرى الاسلوبين لاولين من زخارف سامراء واضعين على الزخارف الجصية بمسجد بن طولون (٨٧٦) . كما دخلت ايران ونراها في مسجد نابين بالقرب من مدينة يزد . وبعد فتح السلاجقة الاتراك للعراق وسوريا (القرن ١١ - ١٣) تطور اسلوب الزخارف المجردة الى نحت الاشكال الادمية والحيوانية على المبني والقنطر وأبواب المدن الكبيرة مثل الموصل وبغداد .

وتعتبر الموصل - مقر حكم اتابكة الاسرة الزنكية - مركزاً آخر هاماً من المراكز الفنية في العراق في العصر السلجوقي ، ففي المسجد الذي بناه نور الدين ، محرابان بدیغان من الحجر تزيینهما زخارف التوريق النباتية ، وأقدم هذين المحرابين عهد يرجع الى عام ١١٤٨ وقد صنعه مصطفى البغدادي ، ويحتوي بالإضافة الى الزخارف النباتية كتابات عربية متشابكة ، وقد انتقل اسلوب النحت السلجوقي الى كافة مناطق العراق وآل سوريا وآسيا الصغرى ، وابرز نحت يمثل هذا الاسلوب في بغداد هو بقايا النتش الباز من باب الطلس الذي يرجع تاريخه الى (١٢٢١ - ١٢٢٢) .

أما التصوير فقد برزت المدرسة العراقية ، التي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر عن طريق تصوير المخطوطات ، وكان مركزها بغداد خلال الخلافة العباسية ، وظلت بغداد محفوظة بأهميتها الثقافية في العالم الإسلامي حتى الغزو المغولي عام ١٢٥٨ ، وكانت أغلب المخطوطات العربية المصورة ترجمات للقصص التي كتبها الشاعر الهندي بيدبا ولمؤلفات يونانية في علوم النبات والحيوان والطبيعة والطب ، وأقدمها كان كتاب البيطرة الذي كتب ببغداد عام (١٢٠٩) وهو محفوظ بدار الكتب المصرية في القاهرة ، ومن أشهر الكتب التي أقبل تصورو المدرسة العراقية على تحليلتها بالصور هو كتاب « مقامات الحريري » الذي يقص مغامرات الحارث بن همام وأبو زيد السروجي ، وأهم نسخة منه محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس ، كتبها وصورها يحيى بن محمود الواسطي عام (١٢٣٧) ورغم محاولة الفنان التعبير عن الواقع إلا أن الطابع الظري يطغى عليها . ومن المخطوطات التي ذاعت شهرتها في القرن الثالث عشر كتاب « كليلة ودمنة » وتوجد نسخة منها في المكتبة الوطنية بباريس ويعود تاريخها إلى عام (١٢٣٠) . ويحمل قيام مدارس محلية للتصوير في بلاد الاتبكة السلاجقة في شمال العراق ، وهناك نسخة مصورة من كتاب « الحيل الميكانيكية » الذي يضم اختراعات تشتمل على ساعات مائية وأجهزة آلية مختلفة ، وهو محفوظ في مكتبة طوبقا بو سراي بالاستانة ويحمل أنه كتب في الموصل عام (١٢٥٤) .

وعني المسلمين منذ بداية تاريχهم بفن الكتابة ونال من تقديرهم أكثر مما ناله فن التصوير ، وللنخت العربي أسلوبان رئيسيان : الأسلوب الجاف وتكون حروفه مستقيمة ذات زوايا حادة ، والأسلوب اللين وتكون حروفه مقوسة ، أما الأسلوب الأول فيعرف بالخط « الكوفي » نسبة إلى مدينة الكوفة في العراق ، أما الأسلوب الثاني فهو خط « النسخ » . وظل الخط الكوفي مستعملاً في كل من العراق وسوريا ومصر خلال القرن التاسع وشطراً من القرن العاشر ، وقل استخدامه في القرن العادي عشر في كتابة القرآن ، وحل محله تدريجياً خط النسخ ، رغم أن استعماله استمر متبناً حتى زمن متاخر في كتابة عنوانين السور . واقدم دليل على هذه الخط هو نسخة وحيدة من القرآن تعود إلى القرن الثامن الميلادي وقد سجلت عليها « وقفية » مؤرخة في سنة ٧٨٥-٧٨٤ وهي محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة .

ومعظم المصاحف الباقية من العصر العباسى يعود تاريخها إلى القرن التاسع الميلادي ، وهي مكتوبة على إنرق بلونه الطبيعي أو الملون بالأزرق أو البنفسجي أو الأحمر وبمواد اسود أو ذهبي .

وقد أخذ الإيرانيون المسلمين عن العرب طرق الخط والتذهيب ، ولم يقتصر التذهيب في القرن الرابع عشر على المصاحف فقط ، وإنما انتقل تدريجياً إلى المخطوطات المصورة ، فزيت به مطالع أو خواتيم الفصول ، أو اتخذ إطاراً يحيط بالصورة ذاته ، كما يشاهد في مخطوطة « مقامات الحريري » المؤرخة في سنة (١٣٣٤) ومحفوظة في المكتبة الوطنية بفيينا .

وتطورت في العراق صناعة تكفيت التحف البرونزية بمختلف المعادن مثل النحاس والفضة ، وأصبحت الموصل مركزاً هاماً من مراكز تطبع التحف المعدنية في القرن الثالث عشر ، وبلغ من شهرتها أن ظلت تنساب إليها ولفتره طويلة جميع مصنوعات البرونز والنحاس الأصفر المطعمه بالفضة والنحاس الأحمر . ومن المنتجات الموصليه التي كان لها الأثر الأكبر على مدرسة سوريا ومصر ابريق من النحاس « الأصفر المكفت بالفضة محفوظ بمتحف المتروبوليتان ، وهذا الإبريق مزين برسوم آدمية وأشكال هندسية وكتابات عربية ، وقد صنعه أحمد النقاش في الموصل عام (١٢٢٦-١٢٢٧) ولنفس الفنان طست مكفت تكفيتاً غزيراً بالفضة محفوظ بمتحف اللوفر في باريس ، وقد صنعه خصيصاً لابي بكر الثاني الإيوبي ، سلطان مصر وسوريا (١٢٣٨-١٢٤٠) . ومن تحف الموصل ابريق من النحاس الأصفر محفوظ في المتحف البريطاني وقد صنعه شجاع بن منه الموصلي عام (١٢٣٢) وهو يمثل مرحلة متقدمة في التكفيت بالفضة وقد كسيت أرضيته بأشكال متعرجة .

وساهم المسلمون في تطوير الخزف وابتكرت أسلاليب جديدة في زخرفته وألوانه وأساليب صنعه وهو متاثر إلى حد كبير بالخزف الصيني في تشكيل الاواني ، وقد أظهرت لنا الحفريات الآثارية في سامراء أشكالاً مختلفة من الخزف المتقدم . ويمكن تقسيم الخزف العباسى ذي اللون الواحد إلى مجموعتين : أولاهما تستعمل على جرار كبيرة مغطاة بدھان براق أزرق أو أخضر وت تكون زخارفها البارزة من أشرطة وتفريقات نباتية ، وثانيةهما يتكون من الوان أكثر رقة ويستعمل على صحنون صغيرة وأكواب وأوان من بينها زمزيات ذات تحليات زخرفية بارزة مغطاة بطلاء أحمر براق أو بطاء أصفر من أملال الرصاص له بريق ذهبي . ويعتبر الخزف العباسى المحلى بزخارف من البريق العدنى من أجود منتجات الخزف في العالم الإسلامي . وقد ابتكر الخزافون المسلمين في العراق وایران أنواعاً من الفخار يمكن اعتبارها اصولاً ومصادر لأنواع فاخرة من الاواني التي ظهرت فيما بعد في العصر السلاجوقى . ولم ينته القرن التاسع حتى صار الخزافون المسلمين سادة تلك الصناعة التي اقتصر أمرها على الشرق الأوسط . وقد أظهرت لنا حفريات سامراء بعضاً من أروع أمثلة الاواني

ذات البريق المعدني . وهذا ما دفع البعض الى القول بان صناعة البريق المعدني عراقية الاصيل . وتفوق الخزف العباسى ذو البريق المعدنى فيما تلا من العصور من حيث جمال شكله وبهجة ألوانه . ورسمت زخارف خزف سامراء بعدة ألوان أو بلون واحد هو الاصفر الذهبي أو الذهبي المخضر ، أو البني فوق طبقة من المينا القصديرية . وأبرز بذلات صنعت بأسلوب شبيه بهذه الطريقة وجدت في محراب مسجد سيدى عقبه بمدينة القيروان بتونس ، ويبلغ عددها ١٣٩ بلاطة صنعت على شكل اطار لذلك المحراب ، وقد استوردت « ومعها المنبر الخشبي الشهير الموجود في الجامع » من بغداد . ولا بد ان تكون بلاطات جامع القيروان من صناعة بغداد أيضا لانها تسبق في تاريخها تاریخ خزف سامراء . ويمكن اعتبار مدرسة سامراء فرعا للمدرسة العراقية في صناعة الخزف ذي البريق المعدني الذي كانت بغداد مركزه الرئيسي . وهناك في متحف برلين أمثلة لبلاطات استخدمت في تزيين جدران قصر سامراء وهي على جانب عظيم من الجمال .

وظهرت في بغداد ايضا صناعة ضخمة لنسج الحرير ، واشتهر العباسيون بتزيين الاقدمية المنسوجة من الكتان بزخارف من الحرير ، وهناك قطعة محفوظة بمتاحف برلين سجل عليها اسم الخليفة هارون الرشيد (٨٠٩-٧٨٦) نسجها مروان بن مرعي وعليها كتابات كوفية وأشكال هندسية ، كما ان هناك مجموعة من الاقدمية في متحف الميتروبوليتان مزينة بأشرطة وزخارف من العصر العباسى منسوج قسم منها أو مطرز بألوان مختلفة من الحرير ، وأقدمها يرجع الى عام (٨٩٥) وقد سجل عليها اسم الخليفة العباسى العفتى (٩٠٢-٨٩٣) ، وقطعة أخرى عليها كتابات باللون الاسود ، سجل عليها اسم الخليفة الطیفع (٩٤٦-٩٧٤) ولهذه القطعة أهمية خاصة ، اذ توجد فيها خيوط ذهبية مصنوعة من الكتان البني المجدول مع اشرطة رفيعة من الجلد تاطررق بالذهب . وتعود معظم هذه الاقدمية ذات الكتابات الى القرن العاشر وقد نقش عليها أسماء الخلفاء وهي مزينة بكتابات كوفية مزخرفة وتنتهي حروف بعضها بانصاف مراوح نخيلية ، وهو اسلوب اسلامي صرف وليس بيزنطيا كما يعتقد البعض .

هذا استعراض سريع للفنون الاسلامية في العراق التي تطور وتكامل أكثرها في العهد العباسى ، ونأسف القول بأنها الآن جميعا فنونا متدثرة لا تسبب الا لعدم عناية الفنانين بها واتخاذها مصدرا مهما لفنونهم ، وعسى أن يأتي اليوم الذي ينظر فيه الفنان العراقي نظرة جدية الى تراثه ك مصدر الهمام يستوحى منه الكثير ليعبر عنه بأسلوب حديث يصبح طابعه المميز كما فعل اجداده العباسيون .